

الفصل الأول

اتجاهات الكتابة التاريخية في مصر خلال القرن التاسع عشر

- أهمية كتابات الجبرتي في تاريخ مصر الحديث • كتابات الجبرتي عن محمد علي وما ترتب عليها • دور رعاية الطهطاوي وتلاميذه في حركة التنوير وفي تطوير الدراسات التاريخية • علي مبارك ودراساته حول تاريخ مصر المعمراني والاجتماعي والتطبيقي • معاصرو علي مبارك وكتاباتهم • ميخائيل شاروييم ومواكبة الأسلوب الحديث في الكتابة التاريخية • كتابات الأفغاني وأثرها في انبعاث الكتابة الوطنية • كتابات رجالات الثورة العربية ككون من ألوان الكتابة التاريخية .

تبدأ حركة التأليف التاريخي لمصر الحديثة بعيد الرحمن الجبرتي الذي عاش عصر انتقال مصر في العصور الوسطى إلى العصر الحديث تلك الفترة التي اتسمت بالإضطراب الشديد والتغير السريع ، والتي شملت أواخر العصر العثماني الأول وعصر الحملة الفرنسية ونحو عشرين سنة من حكم محمد علي . وهذه الفترة من تاريخ مصر تعد الحد الفاصل بين عصر الركود والهدم والتخريب ، وعصر النهضة والانشاء والتجديد .

وكتابات الجبرتي في مؤلفيه * عجائب الآثار في التراجم والأخبار ^(٦) * ومظهر
التقديس بذهاب دولة الفرنسيين ^(٧) - أو زوال دولة الفرنسيين في بعض النسخ - تعد
بمئة الركائز الأساسية في كتابة تاريخ مصر الحديث خاصة وأن صاحبها ذكر
الحقائق التاريخية دون مواراة أو مجاملة لحاكم أو لغيره ، وعالج مشاكل الحياة والمجتمع
المصري معالجة البصير بالأمور وحكم عليها حكما مقبولا مما جعل المؤرخ البريطاني
"توينبي" يصفه بأن مثل ثوكيد يدس اليوناني الذي وقع عليه عبء كتابه تاريخ حقبة
شاذة من حياة الحضارة التي ترعرع في ريوها ، وأن في وسع مصر أن تغاخر
بالجبرتي وأن يتأهى به سائر المتحدثين بالعربية ^(٨) .

وجعل " شفيق غريال " يصفه بأنه أخذ من كل شيء بطرف ، وله في كل دراسة
مقام محمود ^(٩) .

١ - طبع عدة طبعات بعد أن ظل محجوبا لفترة ليست بالقليلة ، وبعد أن أذن الخديوي توفيق
بطبعه طبع لأول مرة في عام ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩ بالمطبعة الأميرية ببلاط ثم تكرر طبعه فطبع
بالمطبعة الشرقية في عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م في أربعة أجزاء وقامت وزارة التربية والتعليم
بتحقيقه تحت إشراف الأستاذ محمد شفيق غريال في عام ١٩٥٨ كما ترجم إلى الفرنسية في
تسعة أجزاء .

٢ - يؤرخ هذا الكتاب للحملة الفرنسية على مصر ، وكان الجبرتي قد أهداه إلى يوسف باشا القائد
المثماني الذي دخل القاهرة في أعقاب خروج الفرنسيين منها ، وقد قامت وزارة التربية والتعليم
بتحقيقه في عام ١٩٦١ ، والجدير بالذكر أن الجبرتي قد ألفه في تاريخه من جهود بعض
المعاصرين له أمثال اسماعيل الخشاب وحسن المطار كما ألفه أيضا من جهود من سبقه من
المؤرخين .

٣ - أرنولد توينبي : عبد الرحمن الجبرتي ومصره - ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتي دراسات
ويحوث ص ١٥ .

٤ - محمد شفيق غريال : عبد الرحمن الجبرتي - ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتي دراسات ويحوث
ص ٩ - ١١ .

وجعل " عزت عبد الكريم " يصف ما كتبه بأنه كان على مستوى عال من اللغة والتحرر والإضافة خلال ذلك المتعطف الذي كانت تجتازه مصر ^(١) .

وجعل " محمد أنيس " يقول عنه أن أهم ما يميزه هو دقة المؤرخ واستقصاءه للحوادث ، وموضوعيته هذا فضلا عن أنه كتب عن عصور ثلاثة هي مصر العثمانية والحلة الفرنسية وظهور محمد علي ^(٢) .

يضاف الى ذلك أن البعض وصف ما كتبه بأنه أعظم تواريخ مصر في القرنين الثاني عشر ، والثالث عشر الهجريين (٣) وأنه تاريخ ممتاز للحوادث التي وقعت في مصر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين ، وأنه من أعيد واضبط المؤلفات التاريخية التي تصف أحداث زمانها بصديق (٤) ويمكن أن ترجع ذلك إلى ما يلي :

١ - يعد ما كتبه الجبرتي وثيقة تاريخية هامة وفريدة في تاريخ مصر السياسي والاجتماعي خاصة وأنه يحمل بين جنباته صورة مفصلة عن حياة المصريين الاجتماعية، ويتضمن التأثيرات الموضوعية للحملة الفرنسية على مصر ، كما يتضمن فترة هامة من حكم محمد علي بما لها وما عليها . فقد عاش الجبرتي عصر انتقال مصر من حال إلى حال ، وصور ما تحمله أهلها من مشقات وبؤن ما

١ - من تقديم عزت عبد الكريم للدراسات والبحوث التي قدمت خلال ندوة الجبرتي التي أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في أبريل ١٩٧٤ .

٢ - محمد أنيس : الجبرتي ومكانته في مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ، دراسة ضمن بحوث الندوة .

٣ - راجع ما كتبه ماك دونالد Macdonald في ترجمته للجبرتي في دائرة المعارف الإسلامية مادة " جبرتي " وما كتبه إدوارد ولیم لين في كتابه الأحوال والعادات في مصر الحديثة

The, Manners , customs of the modern
Egyptian, london, 1836

٤ - أسدرستيم : المحفوظات المكتبة المصرية ، المجلد الأول ١٨١٠ - ١٨٣٢ تحت عنوان " ما لا يستثنى عنه الباحث "

رأى وما سمع وما أحس دون أن يتحاز لحاكم أو لسلطة فعلى الرغم من تكوينه الدينى ، فقد كان رجل دين ونبأ أخذ من كل شيء بطرف فاشاد بالظواهر الاجتماعية لسياسة الفرنسيين فى مصر أحيانا وتد بأعمالهم الثقافية للشرع والدين فى أحيان أخرى فامتدح رفضهم للسحرة ، وتشكيلهم الديوان ، واهتمامهم بتنظيم القضاة وعنايتهم بالنظافة ، ومنعهم دفن الموتى فى المقابر القريبة من المساكن ، وعداولهم فى الأحكام خاصة خلال محاكمتهم لسليمان الحلبي قائل كبير حيث لم يبادروا بقتله بل سألوه وحاكموه وناقشوه وناقشوا الشهود ، كما أبدى إعجابه بنشاطهم العلمى وورعيتهم فى البحث والمعرفة وتنظيمهم لقاعة المطالعة التى خصصوها للقراء^(١) وتطلعهم الزائد الى العلوم فعندما شاهد التجارب العلمية التى أجراها أمامه بعض علماء الفرنسيين قال : لهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق وبدأون فى ذلك الليل والنهار، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريقها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت .. وعندهم الآلات الفلكية الغربية المتقنة الصنعة والآلات المرتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن كما أعرب عن دهشته مما شاهد عندما زار المجمع العلمى الفرنسى بقوله " ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا " (٢).

وتزداد قيمة ما كتبه الجبرئى من كونه عاصر معظم الأحداث التى كتبها وشارك فى بعضها أحيانا ، وتابع بعضها فى أحيان أخرى ، وساعده فى ذلك اتصاله بالجهات

١ - من المفيد الإشارة إلى أن ما كتبه الجبرئى فى " مظهر التقديس " ينشأ عما كتبه فى " عجائب الآثار " ففى مظهر التقديس يخرج الجبرئى عن الموضوعية أحيانا ، وينظر إلى الحوادث بعاطفة الدينية والوطنية فىرى كل ما هو فرنسى كره ، ويكفى أن يكون الحكم غير اسلامى لينتقده ، ولكنه فى عجائب الآثار تخطى عن هاتين العاطفتين .

للتفاصيل انظر د. محمد أنيس : الجبرئى بين مظهر التقديس وعجائب الآثار ، مجلة كلية الآداب المجلد الثامن عشر ج ١ مايو ١٩٥٦ ص ٥٩ - ٧٠ .

٢ - الجبرئى : عجائب الآثار ج ٣ ، القاهرة ، الطبعة الأميرية صفحات ٢٦ ، ٢٤ ، ٢٥ .

الرسمية يومئذ . وتعيينه عضواً في الديوان العام الذي أنشأه الفرنسيون بالقاهرة للاستعانة به على ضبط النظام فجاء ما كتبه سجلاً حافلاً التزم فيه جادة الحيدة والانصاف وقد عبر عن ذلك في مقدمة كتابه بقوله "لم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بتفاق أو مدح أو ذم مبادئ للأخلاق لميل نفساني أو غرض جسماني " .

وحول موضوعية الجبرتي وعدم انحياز له لارضاء الحاكمين وتغلب الموضوعية على الذاتية في كتاباته نذكر .

١ - على الرغم من دفاع الجبرتي عن العثمانيين في العديد من المواقف فقد أعرب عن خيبة أمله في عودتهم إلى مصر عقب خروج الفرنسيين منها لشعوره أن الحكم الفرنسي في بعض الأحيان كان خيراً من الحكم العثماني .

٢ - على الرغم من كراهية الجبرتي لمحمد علي لما رآه من ضروب العنف والاستبداد والفساد التي وقعت في عهده ، ووضع أدوات الانتاج في يده ، وقيامه بإلغاء الالتزام الذي أضر منه شخصياً فقد كانت كتاباته عنه في معظم الأحيان تتسم بالموضوعية فاشاد بمحمد علي في بعض المواقف وانتقده في مواقف أخرى ، وعن مواقف الإشادة بمحمد علي نذكر أنه أشاد بفضلته في تعزيز الاسكتندرية ووصف ذلك العمل بأنه من محاسن الأفعال التي عجز السابقون عن القيام بها . كما أشاد به عندما قام بتشجيع أبناء مصر من النباهة فلذكر أنه عندما ابتكر مصريا يدعى "حسين شلبي عجوة" آلة لضرب الأرض وتبييضه تنور بطريقة سهلة توفر على الناس جهودهم وطاقتهم وعمل لها مثالا من الصفيح وقدمه لمحمد علي أنعم عليه الباشا بالأموال وأمره أن يذهب إلى دمياط ليقيم فيها مصنعا تستخدم فيه هذه الآلة التي اخترعها ^(١) .

أما عن مواقف انتقاده لمحمد علي فعلى الرغم من أنه كان يعلم جيداً أن ذلك سيسبب له المشاعب ، وقد يعرض حياته وحياة أسرته للخطر فإنه كان جريئاً وأميناً

١ - الجبرتي : عجائب الآثار ج ٤ ص ٢٧٢ .

فى إتهامه له فذكر * أن من طبعه الحسد والشرة والطمع والتطلع لما فى أيدي الناس وأرزاقهم ^(١) * كما تعرض لموقف محمد على من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية بالنقد فأعرب عن تعاطفه مع رجالات الدعوة واقتناعه بأرائهم. وأبدى تبرمه من قيام محمد على بإثقال كاهل المصريين بالضرائب لتدبير تكاليف الحملة فقال * وجعل على كل فدان ستة قروش وسبعة وثمانية وذكر أنها مساعدة على حروب الحجاز ^(٢) * كما ذكر أن جنود محمد على كانوا يخطفون من الفلاحين * السمن والجبن والتبن والبيض وغير ذلك ^(٣) * بحجة سفرهم الى الحجاز لدرجة أن قل اللحم والسمن والجبن خاصة بعد أن استولى محمد على على مواشى الفلاحين وأغنامهم ^(٤) .

وإلى جانب ذلك فإنه يمكن القول أن الجبريتى كان وسطا فى بعض الأحيان فى حكمه على محمد على ومن ذلك قوله * له منوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطالبة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه ^(٥) .

وهكذا يتضح أن الجبريتى لم يتجن على محمد على بل كان منصفاً فى عرضه لأعماله فذكر ماله وما عليه وهذه هى إحدى شئم المؤرخ الحقيقى الذى لا يحابى ولا ينحاز

١ - عجائب الآثار ج ٣ ص ٣١٢ - ٣١٤ .

٢ - نفسه ج ٣ ص ٣١٣ .

٣ - نفسه ج ٢ ص ٣٦٩ .

٤ - نفسه ج ٤ ص ٩٠ وللتفاصيل انظر د. عبد النعم الجميى : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابات المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبريتى : الرياض ، العدد الأول من مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

والاقت للظن أنه على الرغم من أن الجبريتى كان قاهريا والريف كان على هامش حياته إلا أنه كان على علم بحياة الفلاحين خاصة وأنه كان يمتلك أرضا بقرية * ابيار * بالقرب من كفر الزيات لتفاصيل ذلك انظر دراسة للدكتور روف عباس تحت عنوان * تصوير الجبريتى للمجتمع الريفى ندوة الجبريتى ص ٤١٣ .

٥ - عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٨٠ .

لأحد مهما عظم نفوذه ، ولا يغمط الحقيقة حقها مهما كانت العواقب ، وربما لو عاش الجبرتي فترة أطول وشاهد التطور الأخير من حكم محمد علي لتغير موقفه تجاهه خاصة وأن الجبرتي توقف في كتابته عند عام ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م أي في وقت كانت جهود محمد علي العمرانية والحضارية لم تكن قد انتضحت بعد .

٣ - يرجع الفضل للجبرتي في تكوين تاريخ مصر وحوادثها وتراجم رجالها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين ويدون ما كتبه كان المؤرخون يفتقون العديد من حوادث تلك الحقبة حقيقة هناك كتاب " ذكر تملك الفرنسيات للديار المصرية " للمعلم تقولا بن يوسف الترك اللبناني ^(١) ، وهناك كتاب " تحفة الناظرين قيمن إلى مصر من الولاة والسلاطين " للشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر خلال تلك الفترة ^(٢) ولكن هذين المصدرين العربيين يشوبهما الكثير من عوامل النقص والقصور فالأول مال نحو الجانب الفرنسي والجاليات الأجنبية في مصر فمدرج بونايرت ورشي كبير وما كتبه لا يرقى إلى كتابات الجبرتي ، وجُل ما يحمده له أنه حفظ لنا بعض المنشورات التي أعملها الجبرتي ، والثاني كان أول من استقبل الأتراك العثمانيين بعد خروج الحملة وألف كتبيا بناء على طلبهم ، ولكن ما كتبه ليس فيه عن الحملة الفرنسية سوى صفحات قليلة لا قيمة لها بالنسبة للمؤرخ اللهم إلا من جهة صنورها من رجل كان شيعيا للأزهر .

٤ - كتب الجبرتي تاريخا بلا عاطفة وكان رائده الصدق فيما كتبه فهو يلم بالشوارج ويدون ويقيّد ولكنه لا يلوّن بشعور ولا يضفي باحساس ^(٣) فعندما تحدث عن الثورات التي قام بها أهل القاهرة من الفرنسيين اتهم بعض زعمائها بأنهم من الأحرار

١ - عمل في خدمة الأمير بشير الشهابي ، وحضر إلى مصر قبل الحملة الفرنسية بزمان قصير ، والكتاب طبع في باريس مع ترجمة فرنسية له .

٢ - كان رئيسا للديوان أيام الفرنسيين وقد ترجم له الجبرتي في وفيات ١٢٢٧هـ ، ومن المعروف أن الشيخ الشرقاوي ثمارين مع الفرنسيين وأنهم يتفوقهم لذلك كان اختياره كرئيس للديوان الأول اختيارا مقصودا من جانب بونايرت .

٣ - مجموعة الشرقاوي : دراسات في تاريخ الجبرتي - مصر في القرن الثامن عشر ج١ ، القاهرة ، الأتيلو المصرية ١٩٥٥ ص ٢٩ .

الافاقين كما سعى القائمين بالثورة أحياناً بالذعر وأحياناً بالحشرات مما يؤكد طبيعته البعيدة عن العنف ، وعندما تطرق إلى مساوئ الحكم القرنسى لم يفته الاشارة بعداتهم خلال محاكمتهم سليمان الحلبي قاتل كبير .

٥ - بساطة الجبرتي وعدم انسياقه إلى التفاخر بنفسه أو بأعماله ، فعلى الرغم من اشتراكه في الديوان الذي ألفه مينو لم يردد ذلك صراحه في كتابه ، وعندما تعرض لذكر الديوان لم يذكر اسمه صراحه وإنما قال كاتبه .

٦ - كتب الجبرتي مؤلفه بطريقة الحواشي واليوميات في إلماسة وتفصيل ممتعه ، وبشكل جعل تعيين الأماكن والمواقع ظاهرة واضحة في روايته . فلا يورد حدثاً من حوادث الحرب أو الثورات أو المراكب والحفلات العامة ولا سيعا في القاهرة إلا قرنه بتحديد الأماكن والمواقع من شوارع وميادين ونزوب ومنازل بحيث نستطيع من خلال روايته أن نصور معالم القاهرة في عصره وأخسحه جليه .

٧ - إن كتابات الجبرتي أشبه بالتلال الأثرية لا تكاد تحفر فيها حتى تجد تحفة أثرية نادرة ، وكلما ازدادت في الحفر عثرت على اللؤلؤ والجواهر ، ومع ذلك فإن هذا الحفر يحتاج إلى صبر ومثابرة وإناء حتى يمكن استخراج هذه النفائس من الأثرية العالقة بها ^(٩) .

ومع كل ذلك فعمماً يلاحظ على كتابات الجبرتي أنه كتب عن القاهرة أكثر مما كتب عن مصر كلها فالحوادث التي تعرض لها عن الوجهين القبلي والبحري كانت على هامش كتاباته يضاف إلى ذلك أن من يقرأ الجبرتي يرفقه كثرة استعماله للعامية والتعبيرات الشعبية المصرية مثل كلمة " شطح " أي ارتفع وكلمة " قشلاق " بمعنى مقلس وكلمة " وثارت كرشه " أي زحاح وكلمة " النفخه " بمعنى الفرور كما يرفقه كثرة الانحطاط وعدم الترتيب العلمي . وعدم تناسق الروايات والحوادث التي يتعرض لها وقد لا يعيب هذا الجبرتي بقدر ما يعير عن طبيعة عصره ومعاييره ، فقد تأثر الجبرتي بطابع عصره من ناحية انحطاط الأسلوب ، وشيوع العجمة في التراكيب والتزدى في الكثير من الأخطاء

٩ - أحمد حافظ موسى : فتح مصر الحديث ص ٤٢٥ - ٤٣٦ .

النحوية واللغوية لذلك فالذين لا يأخذون الأمور بظواهرها ، والذين يتعمقون في البحث عن حوادث تلك الأيام وأحوالها وظروفها لا يسعهم سوى الإعجاب بما كتبه الجبرتي كثر تاريخي هام، ويوميات ذات قيمة كبيرة للمؤرخ ^(١) برزها ما كتبه علماء زمانه أمثال "عبدالله الشرقاوي" و"إسماعيل الخشاب" ونقولاً ترك وغيرهم لدرجة أن مقارنته بهؤلاء شبهها البعض بمقارنة القمح بالقشور ^(٢) وعلى أي حال فإن موقف الجبرتي من "محمد علي" قد عرّض حياته وحياته أسرته للخطر ، وجلب عليه الضرر البالغ ففقد ابنه خليل الذي قتله جنود محمد علي في شبرا بعد صلاة العجر بأوامر من "محمد بك الدفتردار" صهر محمد علي ثم ربطوه برجل حماره، ولما أصبح الصباح عرفه الناس بما كان يعاني من دغائر مكتوبة، وآلات لرصد النجوم والكواكب ، وأخذ الناس في تناقل الخبر .

ونتيجة لحزن الجبرتي على ابنه فقد بصره ، وترك الكتابة والتأليف ، وظل في داره منزويا حتى مات . يضاف إلى ذلك أن منزله بالصناديق ومكتبته الحافلة بذخائر المخطوطات قد أحرقا خشية أن يكون فيهما أوراق أو كتابات معادية لمحمد علي ^(٣) ونتيجة لذلك نفر المصريون من كتابة تاريخهم الحديث حتى لا يقعوا تحت طائلة اضطهاد أسرة محمد علي كما حدث للجبرتي ، وكهنت أسرة محمد علي أيضا أن يشتغل

١ - الجدير بالذكر أنه لا صحة لما يذاع حول أن هناك جزءا خامسا من كتاب عجائب الآثار لم يصرح بطبعه لما فيه من الشتم على محمد علي لأنه توجد نسخة خطية من تاريخ الجبرتي في مكتبة وزارة العربية الفرنسية بباريس - ولو كان فيها شيء لم ينشر في الطبعة العربية لما خفى أمره على المستشرقين والباحثين الأوربيين ..

انظر عرض : المرجع السابق ص ٤٣٨ .

٢ - جاك كرايس : كتابه التاريخ في مصر القرن التاسع عشر - ترجمة عبد الوهاب بكر - القاهرة ، الألف كتاب الثاني (١٩٨) ١٩٩٣ ص ٨٢ .

٣ - يذكر البعض أن جزءا من تاريخ الجبرتي احترق ، وكان يتضمن حوادث ما بعد سنة ١٢٣٦ هـ .

انظر الشرقاوي : المرجع السابق ص ١٦ .

ومن المعلوم أن محمد علي أوعز إلى بعض الموالين اليه بنقد كتاب الجبرتي وتجريحه فكتب الشيخ خليل الرجبى كتابا بعنوان " تاريخ الوزير محمد علي باشا " عرض فيه لمآثر محمد علي وأشاد بأعماله، ورد على ما جاء في كتابات الجبرتي بشأن محمد علي .

المصريون بدراسة تاريخهم الحديث وخاصة أنهم كانوا يريدون ألا يدون من تاريخهم سوى ما يروقهم ، وأن يكتب المؤرخ التاريخ على الصورة التي ترصيهم ولا تغضبهم وعن هنا ابتعد المصريون عن كتابة تاريخ بلادهم السياسي وأخذ بعضهم - خصوصاً الذين درسوا في أوروبا - في تنمية ميوله وثقافته عن طريق ترجمة بعض الكتب التي تغطي تاريخ العالم منذ أقدم العصور أو التي تتطرق إلى الأمور الثقافية والتربوية والأدبية كما فعل رفاعه الشهبازي وتلاميذه ^(١) فقد ترجم رفاعه - الذي بدأ يفكر في مستقبل الدراسات التاريخية في مصر بعد عودته من فرنسا ^(٢) عدة مؤلفات معروفة ومشهورة ^(٣) كما حاول قدر الإمكان عدم التعرض لواقع مصر المعاصر له وخاصة أسرة محمد علي فتطرق للكتابة في تاريخ مصر القديم ، وفي السيرة النبوية فكتب في التاريخ القديم « أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني اسماعيل » ^(٤) وفيه تعرض لعصور الفراعنة والرومان والبطانة والبيزنطيين وختمه بالفتح العربي لمصر بطريقة جديدة نهج فيها منهجاً علمياً لم ينقش فيها من قدر أمجاد مصر القديمة أو يلعنها كما كان يفعل سابقيه ، وإنما آمن بأمجاد هذا التاريخ ، ورغب في أن تستعيد مصر أمجادها التي كانت عليها في عهد الفراعنة . وكتب عن سيرة الرسول عليه السلام كتاباً بعنوان «نهاية

١ - للتفاصيل انظر جمال الشبال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٦ ص ١٥٩ - ١٥٤ وايضا التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ص ١٩٨ - ١٩٩ .

٢ - كان ثمة تفكيره مشروعين علميين الأول ترجمة بعض المؤلفات التاريخية إلى اللغة العربية حتى يضع بين يدي المصريين تاريخاً متكاملًا يغطي العصور التاريخية المختلفة ، والثاني إنشاء مدرسة للتاريخ والجغرافيا ، ويبدو أن هذه المدرسة لم تعيش طويلاً .

٣ - من هذه المؤلفات :

- نظم اللاقي في السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك وهو تاريخ فرنسا ويشتمل على مقابلة زعمية بالتاريخ الإسلامي .

- مطالع شعوس السير في وقائع كركوس الثاني عشر وهو تاريخ لشارل الثاني ملك السويد .

- اتحاد الملوك الأتيا بتقدم الجمعيات في أوروبا

- تاريخ بطرس الأكبر

٤ - طبع عام ١٨٦٨ .

الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز " تتبع فيه حياة الرسول منذ مولده إلى وفاته ، كما قدم دراسة هامة عن المؤسسات السياسية والإدارية والاجتماعية والمالية في الاسلام في محاولة منه للخوض في هذا الموضوع بطريقة علمية وإرفاقه بغير هذين الكتابين مؤلفات لها قيمتها التاريخية فحول رحلته الى باريس كتب " تخليص الإبريز في تخليص باريس " أو الديوان النفيس ببيوان باريس ^(١) " وهو عنوان مسجع على نحو ما كان شائعا في ذلك الوقت ، وفيه عرض لرحلته في فرنسا والحركة الاستنارة الأوربية التي غرستها فيه هذه الرحلة ، فتحدث عن قيام الفرنسيين بخلع الملك شارل العاشر في عام ١٨٣٠ وقيام ملكية بولير الدستورية ، وتعرض للمبادئ الدستورية التي غرستها الثورة الفرنسية في نفوس الفرنسيين والتي نصت على مبدأ تكافؤ الفرص وما للمواطن الفرنسي من حقوق وما عليه من واجبات كما نصت على حرية العقيدة والعبادة وعلى حرية الرأي في حدود القانون والصالح العام .

ومع أن رفاة حاول إدخال مبادئ الثورة الفرنسية في النهضة المصرية الحديثة وفي تاريخ الفكر السياسي المصري الحديث فإنه كان متحفظا في ذلك إلى حد كبير وعلى سبيل المثال تذكر أنه حين أشار إلى مبدأ فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لدى " مونتسكيو " نجده يتعرض للفكرة الإسلامية التي ترى بأن الشريعة فوق الجميع وأن على المحكومين طاعة الحاكم ، وعلى الحاكم إرضاء المحكومين وأرساء العدالة بينهم وممارسة سلطاته بطريقة سليمة فالحاكم لديه يتمتع بكامل السلطات بشرط احترام القانون ^(٢) .

وحول ما يخص آداب عصره كتب " مناهج الأكياب المصرية في مناهج الآداب

١ - نشر لأول مرة في عام ١٨٣٤ ، ثم طبع بعد ذلك ثلاث طبعات ، وترجم قيعا بعد إلى التركية ولقى قبولا واسعا بين أوساط المثقفين في استانبول .

٢ - الجدير بالذكر أن محمد علي قرأ هذا الكتاب بعد أن ترجم له إلى التركية ، وطبع بعد ذلك عدة طبعات من أشهرها الطبعة التي اشرف عليها وزارة الثقافة والإرشاد القومي على إخراجها وكلفت الدكتور مهدي علام ويعني الاستاذة بالتطبيق عليها والتقديم لها وكان ذلك في عام ١٩٥٨ م .

العصرية^(١) " . وهو أول كتاب عربي ينزع إلى الناحية الوطنية^(٢) فيذكر معنى الوطن وعصر ومزاياها ويتعرض لفكرة التسامح الديني والأخوة في الوطن ، كما يتعرض للمنافع العامة فيخصص لها أكثر أجزاء الكتاب فيذكر الآمال التي يأملها في المنافع العامة في كلمات تحفل بمعاني التكريم والولاء لمصر وشعبها قمصر في نظره أم الدنيا وروشتها ، وأنها دون غيرها من الممالك أعظم تعدينا وتقدما ، كما أن أهلها لديهم درجة عليا من الفنون والمنافع العمومية وهو ما تشهد به الآثار المصرية التي تعد من أكبر مصادر الفخر للمصريين بحكم احتوائها على المقومات الأساسية للحضارة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وفي خاتمة الكتاب يتطرق رفاعة إلى ما يجب على المصريين تجاه وطنهم بأسلوب جمع فيه بين ثقافته الإسلامية وثقافته الفرنسية .

وحول ما يخص تربية الناشئة كتب رفاعة " المرشد الأمين في تهذيب البنات والبنين " وهو كتاب أخلاقي وتربوي للمتعلمين والمتعلقات وقد صدر في عام ١٨٧٢ .

وإلى جانب ذلك قام رفاعة بإصدار أول مجلة ثقافية علمية تصدر في مصر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بالاشتراك مع علي باشا مبارك وهي مجلة روضة المدارس المصرية التي صدر العدد الأول منها في الخامس عشر من المحرم عام ١٢٨٧ هـ الموافق إبريل ١٨٧٠ م وكانت روضة حقة تحفل بشمار جمهرة من الأقلام البارعة وقد طرحت هذه المجلة عدة تساؤلات أهمها :

على أي منهج يكون تحول مصر الحضاري ؟ هل نعود إلى الماضي وننعم بالعيش في فردوسه المفقود ، ونقطع كل صلتنا بالعاشر ؟ أم نقفز قفزا إلى أفاق المستقبل ونقطع كل صلتنا بماضيينا الجيد ؟ وكان الجواب حاضرا تجسده شخصية رفاعة

١ - نشر لأول مرة في عام ١٨٦٩ .

٢ - نشر حسين الرصافي خلال هذه الفترة وبالتحديد في عام ١٨٦٩ كتابه " الكرم الثمان " وفيه تعرض لدراسة الكلمات الجديدة التي وفدت على الفكر السياسي المصري مثل الوطن ، والحريّة ، والأمة ، والعدالة ، والعلم ، والسياسة ، والحكومة ، والثروة .

الطهطاوى الذى كان شجرة ناشجة من شاعر امتزاج الماضى بالحاضر ، وتكوين مركب جديد فيه أنشأ ما فى الماضى من صفحات ، وأعطى ما فى الحاضر من منجزات^(١) .

ومع أن رفاعة لم يتخل فى كتاباته عن النظرة التقليدية لفهوم التاريخ فى بعض الأحيان ولم يستطيع أن يهجر السجع فى كثير من الأحيان فإنه قد أضاف إليه لمحات جديدة جذرية بالاتفات والتسجيل منها تقسيمه للتاريخ إلى قديم وحديث وإلى عام وخاص كتاريخ جميع الأمم عامة أو تاريخ أمة واحدة كتاريخ المصريين مثلا ، ومنها عاطفته الوطنية القومية وحبه الشديد لمصر الذى ملك عليه نفسه وجعله يشيد بمصر وفضلها على الحضارة العاتية فهو يصفها بألم الدنيا والوطن ، وأم أمم الدنيا التى "تازعت قدماء الأمم فى الأقدمية ، فسلموا لها أنهم دونها مرتبة فى الأهمية وإن لم تسبقها أمة فى ميدان التمدينية " وأنها أيضا " رحيمة الدولة مهيبة الصولة " كما جعله يعتمد الفصول الطوال فى كتبه المتعددة لتغنى بالوطن والوطنية وأهمية التضحية فى سبيلهما .

ومع أن الطهطاوى كتب عن الوطنية فإنه لم ينس أنه مسلم قبل كل شيء وأبرز الأدلة على ذلك ما ذكره فى شعره الذى تغنى فيه بمصر وباريس معا حيث يقول

فكل منهما عندى عروس ولكن مصر ليست بنت كفر^(٢)

وعلى أى حال فإنه يمكن القول أن التسجيل التاريخى أصبح بفضل جهده الطهطاوى وعدرسته تاريخا بالمعنى الحقيقى لكلمة التاريخ وذلك نتيجة للمنهج العلمى الذى اتبعه ، والدقة والموضوعية التى سار عليها فقدم لنا بذلك رؤية حضارية للآثار العام الذى سارت على النهضة المصرية ، كما فتح الأذهان لما يدور فى العالم من أحداث مما يجعلنا نعدّه رائدا من رواد حركة التنوير ، كما تجعل مؤلفاته مصدرا رئيسيا خلال كتابتنا للتاريخ ، وقد سبقنا فى هذا رأى عبد الله النديم الذى طلب خلال فترة اختفائه

١ - محمد عبد الغنى وعبد العزيز الدسوقي : روضة المدارس : نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ١٢ .

٢ - رفاعة الطهطاوى : تخلص الأبريز فى تخلص باريز ، تحقيق مهدى علام وآخرين القاهرة البابى الطبى ١٩٥٨ ص ١٠٥ .

عن تعيين السلطة بعد انكسار الثورة العربية مجموعة من الكتب للاستفادة منها خلال وحدته كان من بينها مؤلفات الطهطاوى .

وعلى الرغم من ذلك فلم يهنا رقاؤه بما قدمه لبلاده من خدمات فبعد ان تولى عباس الأول أريكة الحكم في مصر أمر بنفيه إلى السودان نتيجة لوشاية نقلها البعض إليه . واختلفت الآراء في تعليلها فمنها من قال أن كتاب تخليص الأبريز وما به من آراء وعبادىء لا يرغب فيها الحاكم المستبد كان السبب في نفيه^(١) ومنها من يقول أن رقاؤه لقي معارضة من بعض المشايخ المتعصبين الذين ربما عدوه متطفلا على ميدانهم في دراسة الشريعة والفقه فكانوا له عند الياشا^(٢) وهناك رأى آخر يقول إن على مبارك الذى عاد من أوروبا مليئا بالاطماع الشخصية كان وراء نفي رقاؤه إلى السودان^(٣) .

وعلى أى حال فقد انكب بعض المعاصرين للطهطاوى على دراسة تاريخ مصر العمرانى والاجتماعى والتعليمى كما فعل على مبارك^(٤) فى كتابه " الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة "^(٥) والذى يعد من أهم المصادر فى دراسة تاريخ مصر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر هذا إلى جانب أن انشاء مجلة " روضة المدارس " كانت من وحى على مبارك وشار تفكيره حين كان وزيراً للمعارف ، وهو الذى عهد إلى " رقاعة الطهطاوى " بأن تكون تحت نظارته .

١ - الرافعى : عصر محمد على ص ١٨٩ .

٢ - أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر - عصر عباس وسعيد القاهرة ١٩٤٥ ص ٥٨ .

٣ - أحمد بدوى : رقاعة الطهطاوى بك ، القاهرة ، لجنة البيان العربى ١٩٥٠ ص ٤٧ .

٤ - من سيرة حياته لشر الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣٧ - ٦١ .

٥ - تشتمل الخطط التوفيقية على عشرين جزءا فى خمسة مجلدات كبيرة ، وقد أراد على مبارك أن يكمل بها ما كتبه القرينى فى خطته ، وهى عبارة عن موسوعة هامة تضم العديد من التراجم والأعلام ، كما تتناول مطومات هامة عن القرى والمدن المصرية بما فيها من مؤسسات دينية وثقافية خلال القرن التاسع عشر وقد سمعها بالخطط التوفيقية نسبة إلى القديس توفيق ، وقد جاءت هذه الخطط فى بعض الوجوه أتم وأوفى من خطط المقرينى خاصة وإن صاحبها تتبع تاريخ الخطط فى ظلمات العصر العشائى ، وحقق العالم والمواقع الأثرية القديمة على ضوء الاطلاع الدارسة والنشآت الحديثة التى تفصلها من الماضى قرون طويلة .

ومن المعروف أن هذه المجلة إهتمت بالتاريخ وحرصت على نشر الجداول التاريخية للوقائع العائلية الشهيرة والحوادث الكبيرة ، كما تطرقت في موضوعاتها إلى بيان سلاطين آل عثمان إلى عهد السلطان عبد المجيد خان .

يضاف إلى ذلك أن "على مبارك" ألف كتباً عديدة في العلوم والهندسة والثقافة منها "تقريب الهندسة"^(١) " ورواية علم الدين "^(٢) وكتاب "حقائق الأخبار في أوصاف البحار "^(٣) وكتاب "تنوير الأفهام في تغذى الأجسام "^(٤) وكتاب "نخبة الفكر في تدبير نيل مصر "^(٥) وغيره وإلى جانب ذلك فقد قام "على مبارك" بترجمة كتاب تاريخ العرب لسديس .

السؤال المطروح هل قام على مبارك بتأليف كل هذه الكتب العديدة وحده أم ساعده في تأليفها آخرون ، وما هي مصادره التي استعان بها خلال تأليفه لهذه الكتب ؟ .

حقيقة أن على مبارك كان شغوفاً بالتاريخ ، ولكن هذا لا يعني أنه قام بتأليف كل ما كتبه فيه بل كان له معارفون خاصة من الذين عملوا تحت إدارته ، وقد أُلح على مبارك إلى ذلك فذكر أن أعماله الرسمية الكثيرة جعلت من الصعب عليه أن يكمل مهمة التأليف وحده^(٦) .

١ - طبع بمطبعة وادي النيل في عام ١٢٧٩هـ بهدف تعليم الضباط والعساكر أيام سعيد باشا طرق الحساب والهندسة والاستكشافات العسكرية .

٢ - قصة في أربعة مجلدات قسمت إلى مسامرات بلغت ١٢٥ مسامرة وتصور حول رجل أزهرى تتلذذ عليه مستشرق إنجليزي تعلم منه العربية وعلمه الإنجليزية وسافر معه إلى إنجلترا ، ومن خلال ذلك يرصد على مبارك أهمية الاحتكاك الحضاري بين الشعوب ..

٣ - طبع بمطبعة وادي النيل ١٢٨٧ هـ ويبلغ عدد صفحاته ٨١ صفحة .

٤ - طبع بمطبعة المدارس في عام ١٢٨٩هـ .

٥ - وهذا الكتاب يرسم سياسة مستقبلية لمصر تعتمد أولاً وقبل كل شيء على الزراعة المصرية وعلى ما يقوم عليها من تصنيع ثم يقدم بعض النتائج المستخلصة من المقارنات .

انظر محمد أحمد خلف الله: على مبارك وأثره، القاهرة: الانجلو المصرية ١٩٥٧ ص ٢٠٨ - ٢١٤

٦ - انظر الخطط التوفيقية ، الجزء الأول ص ٢ .

أما عن مصادره فقد قرأ كثيرا من كتب الأوربيين والمستشرقين خاصة الفرنسيين منهم نظراً لأنه كان يتقن الفرنسية ، كما رجع إلى المصادر العربية القديمة وقد أشار على مبارك إلى ذلك بقوله إنه جمع " من كتب المعجم والعرب ما يقضى بتأمله إلى العجب، مراجعاً كتب العرب والأفرنج الذين ساحوا تلك الديار ورسومهم التي بينوا فيها حدود هذه الأقطار " .

واستعرت حركة الدراسات التاريخية في التقدم بفضل رجال مدرسة علي مبارك ومعاصريه فعنى " محمد مختار " باشا مأمور الخاصة الشيدوية بالأبحاث والدراسات التاريخية ومن أبرز مؤلفاته في هذا المجال " التوقيعات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنتين الأفريقية والقيطية " (من السنة الأولى للهجرة إلى سنة ١٥٠٠هـ^(١)) وكتب "اسماعيل باشا سرهنك" ناظر المدارس الحربية "حقائق الاختبار عن دول البحار"^(٢) .

ويرجع السبب في تأليف هذا الكتاب إلى رغبة صاحبه في إغادة أهل بلاده خاصة وأن المؤلفات التاريخية المصرية في ذلك الوقت كانت قليلة خصوصاً ما يختص منها بتاريخ الدول البحرية ذات الشأن ، واشتمل هذا الكتاب على عرض لتاريخ الإنسان منذ الخليقة وتوقف عند عصر " عباس الثاني " ، وتعرض فيه سرهنك لبعض الدول البحرية القديمة والحديثة فتكلم عن موقعها الجغرافي وأرخ لتطورها الحربية والتجارية ثم تعرض لتأسيسها ومشاهير ملوكها ، وماعاصرها من الأحداث .

ولعل أهم أجزاء هذا الكتاب هو الجزء الثاني الذي انفرد بتاريخ مصر بالقسط الأكبر منه . وترجع أهميته إلي أنه مليء بالبيانات والاحصاءات والوثائق الهامة هذا إلي

١ - طبع بمطبعة بولاق بالقاهرة في عام ١٢١١هـ .

٢ - طبع في ثلاثة أجزاء بمطبعة بولاق .

ويشير البعض اسماعيل سرهنك من كتاب القرن العشرين لأنه توفي في عام ١٩٢٤ ولكننا أثبتنا العاقة بمؤرخي القرن التاسع عشر خاصة وأنه ألف الجزئين الأول والثاني من كتابه في أواخره وتم طبعها في عام ١٨٩٦ ، وعام ١٨٩٨ .

ومن المعروف أن سرهنك ولد في عام ١٨٦٧ والتحق بالدراسة البحرية بعد أن اتم دراسته الابتدائية ، وتخرج ضابطاً منها ، وتولى قيادة كثير من سفن الأسطول المصري ، وشارك في العديد من العمليات الحربية والبحرية .

جانب تعرضه لتراجم عديدة لمشاهير البحرية والجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ، وقد ساعد " سرهنتك " فى تأليف هذا الكتاب ثقافته العسكرية ودراسته البحرية لعلوم الفلك والجغرافيا والرياضيات وفن الملاحة ، هذا إلى جانب استيعابه للعديد من اللغات ومنها العربية والتركية والانجليزية والفرنسية .

وقد أهدى المؤلف هذا الكتاب إلى الخديو عباس الثانى بقوله فى مقدمته للكتاب " وقد جعلته هدية إلى سدة مولانا محى الآمال الوطنية ، ومعيد النشأة المصرية عزيز مصر وحامى حصى القطر خديونا الأفخم وملأنا الأعظم عباس حلمى الثانى ^(١) " .

وعلى أى حال فقد سد سرهنتك بعض الفجوات التاريخية فيما يتعلق بتاريخ القوى البحرية ، كما استخدم وثائق تاريخية أصلية مدركاً أهميتها فى كتابة دراسته ومع ذلك فإن ما كتبه يمكن خضمه إلى التاريخ الحولى التقليدى مثله مثل على مبارك ومجموعته .

فعلى الرغم من أن سرهنتك حاول أن يكتب عن القوى البحرية فإن ما كتبه شمل العديد من المعلومات فى كل المجالات التى خطرت على باله أثناء كتابته ^(٢) .

وإلحاقاً لهذه المجموعة من كتاب التاريخ الحولى كتب " فيليب جلاند " مندوب قلم قضائياً نظارة الحفانية " قاموس الإدارة والقضا ^(٣) " فى سبعة أجزاء واشتمل على مجموعة هامة من القوانين واللوائح والفرمانات والمعاهدات الرسمية فى القرن التاسع عشر وثبت وفقاً للتسلسل الرسمى مع بعض التعليقات وهذا القاموس يعد مرجعاً مفيداً لمؤرخ التاريخ الاقتصادى المصرى فى نهاية القرن التاسع عشر وكتب " يعقوب ارتين " وكيلاً نظارة المعارف العمومية " القول الثام فى التعليم العام ^(٤) باللغة الفرنسية وقام

١ - حقائق الأخبار ص ٣ .

والجدير بالذكر أن الجزء الثالث من هذا الكتاب طبع فى عام ١٩٢٣ أى بعد صدور كتاب على مبارك " حقائق الأخبار فى الوصاف البحار بربع قرن تقريباً " .

٢ - تافش كراسى ذلك فى كتابه سابق الذكر ص ١٩٣ - ١٩٤ .

٣ - طبع الجزء الأول بمطبعة بنى لا غوداكي بالاسكندرية فى عام ١٨٩٩ .

٤ - طبع بمطبعة بولاق فى عام ١٨٩٤ .

على يهجت المترجم الأول بنظارة المعارف بترجمته الى العربية وفي هذا الكتاب عرض المؤلف لتطور التعليم في مصر فوضح أن عامة المصريين كانوا يهتمون تربية اولادهم ويعارضونها في بداية الأمر ثم ما لبثوا أن قدروا التربية حق قدرها بحيث أصبحت الطلقات ترد إلى نظارة المعارف من جميع انحاء القطر تطالب بإنشاء مدارس لتربية اولادهم ^(١) ، كما تعرض لتطور ميزانية نظارة المعارف والبرامج والخطط التي اتخذتها النظارة لتحديث التعليم .

وإلى جانب ذلك كتب " يعقوب ارثين " الاحكام المرعية في شأن الأراضي المصرية باللغة الفرنسية أيضا وقام " سعيد عمون " بترجمته ^(٢) خاصة وأن مؤلفه كان غارقا حتى أذنيه في الثقافة الفرنسية إلى حد أنه لم يستطع أن يكتب لغة عربية سليمة .

وأرثين كان يفضل في كتاباته أن تروى الجداول والاحصائيات والوثائق ما يريد أن يقوله مما جعل البعض يعد ما كتبه بأنه دراسة مؤسسية على محتويات الأرشيف الحكومي .

ومن هنا لا يمكن اعتبار جلالة أو أرثين مؤرخين فقد كان على الأصح مصنفان للعلوم الاحصائية دون إضافة أي جديد إليها ^(٣) .

واستمرت الكتابة التاريخية في طريقها تسابير طريقة الحوليات وإن كانت نغمة الاعتماد على المحسنات البديعية في الكتابة قد خفت حدتها بشكل غير كبير فكتب " سليم النقاش ^(٤) " الليروتى " مصر للمصريين " أرخ فيه لتاريخ مصر منذ محمد على حتى حوادث الثورة العربية في تسعة مجلدات الثلاثة الأولى منها في تاريخ أسرة محمد على

١ - القول التام ص ٦ .

٢ - نشر بالقاهرة عام ١٢٠٦ هـ .

٣ - كرايس : مرجع سابق ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٤ - هاجر إلى مصر في عهد اسماعيل وعمل بالتثليل والصحافة ولما قامت الثورة العربية شامع عرابي فترة ثم انتقل عليها وأصبح واحدا من أقوى المعارضين له وظل على ذلك الحال حتى توفي في عام ١٨٨٤ .

حتى خروج اسماعيل من مصر^(١) والثلاثة الثانية من ولاية توفيق باشا إلى انقضاء حوادث الثورة العربية أما الثلاثة الأخيرة فشملت محاكمات العربيين وصور محاسنهم الرسمية.

قد افاد النقاش تماما من المادة الوثائقية التي توفرت له رؤيتها فبعد أن والمقت دار المحفوظات له على الاطلاع على الوثائق المحفوظة لديها تمكن من رصد الفرمانات العشائية ، والدكرينات الخديوية ، وتنظيمات الجيش وأوراق عن الأوضاع المالية ، وترتيبات تسوية الديون ، وأوراق العربيين ، والمحاكمات التي تمت لهم بعد الهزيمة والعديد من الوثائق الدبلوماسية الأخرى .

وترجع أهمية ما كتبه " سليم النقاش " إلى أنه كان شاهد عيان للعديد من الأحداث ، يضاف إلى ذلك أنه لم يهمل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في كتاباته فتعرض لمبعثة اللورد " دفرين " Dufferin ، وتجارة الرقيق ، والقبائل البدوية ، وقيام بعض المصريين بشراء أسلحة وملابس من الانجليز مقابل بيع مشروبات روحية لهم .. الخ .

ومع أننا لا يمكن أن نصف " النقاش " بالحياد تجاه العربيين ، خاصة وأنهم أحرقوا له جريدته ، كما أنه يصعب علينا ألا ننتقد أسلوبه في الكتابة الذي لم يستطع فيه التخلص من السجع والزخارف اللغوية فإن ما كتبه يظل مفيدا للمؤرخ الذي يتعرض للثورة العربية خاصة .

وكتب ميخائيل شاروييم (٢) " الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث " (٣) وفي هذا الكتاب تعرض المؤلف لتاريخ مصر من بداياته وحتى توليه عباس الثاني أريكة الخديوية بشكل يجمع في أسلوبه بين طريقة السلف في الكتابة التاريخية ومحاولة

١ - هذه المجلدات الثلاثة أوفت الحكومة طبعها لأنها وجدت في ترجمة محمد علي والخديوي اسماعيل ما يتحتم حذفه النظر جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ القاهرة - مطبعة الهلال ، ١٩١٤ ص ٢٨٧ .

٢ - قبطى مصرى ولد في حي السقاين بالقاهرة في عام ١٨٦١ وتلقب في مناصب عديدة .

٣ - صدر في أربعة أجزاء بين عام ١٨٩٨ ، ١٩٠٠ ويتكون من ١٧٣٨ صفحة من القطع الكبير .

مواكبة الأسلوب الحديث البعيد عن السجع والتكلف وقد استخدم في كتابته طريقة الحواريات ، واستطاع أن يرصد بها قدرا كبيرا من الحوادث والمعلومات التاريخية بشكل أراد به أن يثبت وحدة تاريخ مصر واتصاله بشكل لا يتقطع .

ومع أن أسلوب هذا الكتاب وطريقته ينتميان إلى كتابات مؤرخي العصور الوسطى من حيث أن صاحبه لم يهتم بذكر قوائم مراجعه أو المصادر التي إستقى منها كتاباته فإن رصده للوقائع لم يخلو من التحليل والتعليق في بعض الأحيان ، كما أن تخلصه من الأنماط الأسلوبية القديمة إلى حد كبير وأبعاده عن السجع وتقييمه للحوادث يجعله يفتقر عن مؤرخي العصور الوسطى .

وعلى أي حال فإنه نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والاحتكاك المباشر ببيئة ثقافة الشرق وثقافة الغرب وما أعقبه من تدخل أجنبي في شئون مصر ، ثم حضور جمال الدين الافغانى ، وظهور الصحف السياسية ، وقيام الثورة العربية وانكسارها والاحتلال الانجليزى لمصر وانبعثت الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم من رجالات مصر الأكبر الاثر في ازدهار الحركة التاريخية خاصة بعد أن بدأ المصريون يكتبون عما يجيش في صدورهم من موضوعات سياسية ووطنية ، وما يعانيه وطنهم من آلام وما يجيش في صدورهم من آمال بهدف حفز الهمم وإيقاظ العقول وتقوية الوعي الوطنى لدى أفراد الشعب المصرى .

حقيقة أن ما كتبه معظم أفراد هذه المدرسة لم يهدف إلى خدمة الدراسات التاريخية ، أو لإقرار واقع تاريخى بقدر ما كان شغلا لأوقات فراغهم أو إبراز مواقف معينة وقد أسهمت الصحافة في ذلك بجهود كبيرة فساعدت على تكوين الرأى العام ، وشجعت المصريين على التحدث عن شئون بلادهم بصراحة ، كما دفعتهم الى التعبير عن آمالهم وأهدافهم .

ومن المعروف أن الصحف المصرية في ذلك الوقت تجاوزتها تيارات مختلفة ، فكان هناك التيار الوطنى الثائر الذى تمثل في كتابات " جمال الدين الافغانى " وتلاميذه

والتي تلمعت في العديد من الصحف أمثال "مصر" و"التجارة" و"الطائف" و"الزمان" و"المفيد" و"أبو نظارة"، وهناك الصحف المناهضة للحركة الوطنية والتي تدافع عن الانجليز، وتتغنى بحكامهم، وتشيد بنعمة الاحتلال مثل "المقطم" و"المقتطف" و"الاهرام"، كما كان هناك الصحف الموالية للتيار العثماني الذي يستمد قوته من الأصول المتعددة التي تربط مصر بالقوة العثمانية ويتخذ من ثيار الجامعة الإسلامية مظهرًا له مدفوعًا بالولاء الديني وقد مثلت صحف "مصطفى كامل" هذا التيار أبلغ تمثيل وعلى الرغم من ذلك، وبالرغم من أن الصحافة قد لا يتسم أسلوبها في بعض الأحيان بالموضوعية فإنها كانت عاملاً من عوامل النهضة التاريخية الحديثة.

يضاف إلى ذلك أن ما كتبه قادة الثورة العربية من مذكرات في أواخر القرن التاسع عشر كان مفيداً إلى حد كبير في تغذية الروح القومية لدى المصريين، وتلهم وقائع الأحداث، وانعاش الحركة التاريخية بوجه عام وأبرز الأمثلة على ذلك ما كتبه "محمود فهمي المهندس" و"عبدالله النديم" و"الشيخ محمد عبده" و"أحمد عرابي" من مذكرات خلال فترة النفي أو الاختفاء فكتب محمود فهمي المهندس^(١) "البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر"^(٢) ذلك الكتاب الذي سائر طريقة الحواريات الذي تطرق إلى تاريخ العالم منذ أقدم العصور وامتد إلى أواخر القرن التاسع عشر، وأهم ما في هذا الكتاب ما كتبه المؤلف عن الثورة العربية ووجهه نظره تجاهها، وترجع أهمية ما كتبه إلى أنه كان أحد شهود العيان الذين شاركوا في هذه الثورة، وكان من رجالها البارزين، ومع ذلك يتضح من كتاباته تعامله على عرابي حتى وصل به الأمر إلى التجنى على الحقائق التاريخية وقد يرجع ذلك إلى خصوصه حدثت بينهما في المنفى^(٣).

١ - توفي في السابع عشر من يونيو ١٨٩٤ في منفاه بسيلان، وما كتبه عنه طبعه أنه كان نشيطاً ودهوى المكنة ويقوم بترجمة كتب التاريخ من الإنجليزية إلى العربية.

انظر لطيفة سالم : عرابي ورفاقه في جنة آدم ١٨٨٢ - ١٩٠٦ القاهرة، الانظر المصرية ١٩٨٦ ص ٨٤

٢ - طبع هذا الكتاب في عام ١٢١٢هـ في مطبعة بولاق بالقاهرة أي بعد وفاته بحوالي عام.

٣ - انظر البحر الزاخر ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٢٧.

وإلى جانب ذلك فلمحمود فهمي مفكرات عن الثورة العربية موجودة بدار الوثائق القومية بكونرنيش النيل بالقاهرة تحت عنوان " أوراق الحضرة الخديوية والثورة العربية " وهي عبارة عن مذكراته الخاصة حول ما شاهده أثناء ضرب الاسكندرية والأعمال التي قام بها ، ومذكرة عن تسليم نفسه للإنجليز ومذكرة للخديوي يتصل فيها من التبعات التي أخذت عليه وتلغراف منه إلى عرابي يخبره فيه بالحالة العربية ، وما وصلت اليه من سوء .

وعلى الرغم من خروج " محمود فهمي " على الموضوعية في بعض الأحيان لأن ما كتبه يعد من المصادر الهامة في دراسة تاريخ الثورة العربية وأحداثها .

وكتب عبدالله التديم مذكراته السياسية تحت عنوان " كان ويكون " ^(١) أثناء فترة اختفائه عن أعين الإنجليز والحكومة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩١ وتتضمن هذه المذكرات موضوعات دينية وأدبية وتاريخية وسياسية ومقارنات بين الأمم والأجناس الشرقية والغربية في أحوالهم وأطوارهم واختلاف طرقهم ومناهجهم كما حكى التديم فيها عن أحواله في الفترة التي كان مختفيا فيها ، ومذكراته عن الثورة العربية، ورسائله إلى عرابي ، وإلى جانب ذلك فللتديم مؤلفات عديدة تعرض معظمها للضياع وما تبقى منها مثل كتاب " المسامير " ^(٢) الذي كتبه في هجاء " أبو الهدى الصيادي " وما تم جمعه تحت عنوان " سلافة التديم " يثبت أن أفكار التديم السياسية والاجتماعية كانت سابقة لأفكار أبناء وطنه ، وكانت جديدة عليهم لم يسمعوها عنها من قبل حيث شبه أفكارهم إلى موضوعات جديدة أيقن بها الرأي العام المصري بعد فترة رقار .

وكتب الشيخ محمد عبده " تاريخ أسباب الثورة العربية " ^(٣) بين فيه أسباب هذه الثورة وحواشيها ، ويتوقف عند مظاهرة عابدين، وقد بدأ الشيخ محمد عبده كتابه بوصف أحوال مصر عندما نزل الخديوي اسماعيل عن العرش، وتطوّر ثولية الخديوي توفيق،

١ - قمنا بنشر هذا الكتاب مع عمل مقدمة تحليلية له بالهيئة المصرية العامة للكتاب عن طريق مركز تاريخ مصر المعاصر .

٢ - قمنا بنشر هذا الكتاب مع عمل مقدمة تحليلية له عن طريق مركز تاريخ مصر المعاصر .

٣ - نشر محمد رشيد رضا هذا الكتاب ضمن كتابه تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ج١ ص ١٥٩ وما بعدها .

كما أوضح أن النهضة الوطنية التي ظهرت في مصر خلال هذه الفترة ترجع إلى جمال الدين الأفغاني* وما له من أثر على ازدهار الصحافة العربية وترقية أفكارها .

وقد أوضح الشيخ* محمد عبده* أنه لم يكن راضيا عن حركة العسكريين في بداية الأمر لأنه كان يرى ضرورة الاهتمام بتربية والتعليم الأمة ، ويؤلف الكتاب كما ذكرنا عند حادثه عابدين وعزل رياض باشا وتولية شريف مكانه ، ولم يتم الشيخ محمد عبده باقي أحداث الثورة نظرا للخلاف الذي حدث بينه وبين الخديو عباس الثاني بسبب ما ذكره عن اسراف جده اسماعيل ، وسوء إدارته للبلاد . وعن نقده للخديو توفيق لعدم تمكنه من وقف التدهور الذي حاق بمصر .

ويعد هذا الكتاب من الكتب المهمة في دراسة أسباب الثورة العربية وأحداثها ، ووجهة نظر الشيخ محمد عبده في بعض رجالها . وتبرز أهميته أيضا في أن الشيخ محمد عبده عبّر عن وجهة نظره كأحد تلاميذ الأفغاني الذين لم يحسبوا للعسكريين حسابا أثناء مناداتهم بالإصلاح ، وفي أنه أحد شهداء العيان الذين شاهدوا الأحداث ، وشاركوا في اتخاذ بعض القرارات الهامة التي اتخذها العربيون للدفاع عن مصر .

وكتب أحمد عرابي* كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العربية^(١) وهذه المذكرات تضيء للمؤرخين بعض النواحي ، وتذلل لهم سبل البحث ، وتزيج الريب والشكوك عن الثورة وزعيمها وقد تعرض عرابي في هذه المذكرات لشئائه ونسبه والأحداث التي تعرضت لها مصر أيامه ، وأبرز ما يمكن أن تستخلصه مما كتبه عرابي أنه استعمل لفظ " المصريين " و " الأمة المصرية " بمعناه الحديث واعتبر غير المصريين إجناب سواء كانوا من الأتراك أو الأرمن أو غيرهم ، سواء كانوا من المسلمين أو النصارى كما أنه في حديثه عن الصلة الحبشية إتهم أركان الحرب الأجانب العاملين في الجيش المصري بالخيانة وبأنهم كانوا السبب في المناسى التي تعرض لها الآلاف من الجنود المصريين وانتهت بإبادتهم ، يضاف إلى ذلك اتهمه للخديو اسماعيل بعد خروجه من مصر بأنه سرق من الخزانة ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات .

١ - مخطوط تحت رقم ١٥١٢ علما بأنه يوجد بدار الكتب نسخة مصورة عن الأصل المخطوط تحت رقم (ح ٢٤٩٥٥) وتم نشر أجزاء منها .

ومن الأحكام التي صدرت على زعماء الثورة ذكر عرابي أنه حكم عليه بالإعدام ومعه ستة من زملائه ، ولكن استبدل ذلك الحكم بالنفي المؤبد من مصر وملحقاتها ، كما صدرت الأوامر بمصادرة أملاك العرابيين ونفيهم إلى سيلان حتى أمر الخديو بالمعفو عنهم في عام ١٩٠٦ بعد غياب دام تسعة عشر عاما وأربعة أشهر .

والجدير بالذكر أن عرابي فرغ من مذكراته في السادس والعشرين من يوليو ١٩١٠ .

وعلى الرغم من الأهمية الكبرى لهذه المذكرات من الناحية التاريخية خاصة وأن قاسم الثورة العرابية هو كاتبها ، فإن ما بها من معلومات يحتاج من الباحثين إلى تمحيص وتدقيق للكثير مما ورد فيها .

وجملة القول أن كتابات ومذكرات قادة الثورة العرابية كان لها أبرز الأثر في تفهم العديد من الأحداث وإيضاح الكثير من الحوادث التي لم يتطرق الآخرون إليها .

وهكذا يتضح أن مآكبه زعماء الثورة العرابية في مؤلفاتهم أو مذكراتهم انحصر إلى حد كبير في تحليل أسباب قيامهم بالثورة وشرح وقائعها والتوصل من تبعاتها وأسباب فشلها ولعل السبب الذي دفعهم إلى هذه الكتابات هو شغل أوقات فراغهم سواء خلال فترة النفي أو الاختفاء لذلك تأثروا جميعهم بأحوالهم غير المريحة أثناء الكتابة وانصب ذلك على قيام بعضهم بالخروج على الموضوعية في بعض الأحيان .

ومعما يكن من أمر فإن ما كتبه بعد لونا جديدا من ألوان الكتابة التاريخية عرفت مصر في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم تكن لها معرفة به من قبل ^(١) .

وعلى أي حال فبعد فشل الثورة العرابية لم تتوقف حركة النضال الفكري فاشترك الأفغانى مع محمد عبده في إصدار جريدة العروة الوثقى في باريس لمهاجمة الاستعمار والدعوة إلى التضامن الإسلامى .

ولم يتوقف الأمر على النواحي السياسية فحسب فقد ظهرت في مصر بعض الأفكار الاجتماعية المتأثرة بالتيار الليبرالى الأوروبى فدعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة

فى كتابيه " تحرير المرأة ^(١) " و " المرأة الجديدة ^(٢) " وأرجع الاضمحلال الذى تعاني منه مصر الى وضع المرأة المصرية وتظلمها ورأى أن العلاج الناجع لذلك هو التعليم .

وفى نهاية هذا الفصل يمكن القول أن تطور حركة التأليف التاريخى فى القرن التاسع عشر ذلك القرن الذى أخذ فيه الشرق يصحو من ثباته ، وينفض عن نفسه غبار الضمول والتخلف كان لها أثرها الواضح فى ازدهار الحركة التاريخية فى مصر فى القرن العشرين .

حقيقة أن هذه الحركة لم تقم على أكتاف مؤرخين متخصصين وإنما قامت على أكتاف الهواة وحشاق التاريخ الذين قدموا دراسات رائدة وإن كان معظمهم قد اهتم بالجمع والتنسيق والمنقعات البديعية أكثر من التدقيق والتحقيق والذى برز منهم العديد من كتاب التاريخ الثناء أمثال عبد الرحمن الجبرتي ذلك الشيخ الأزهرى الذى دون الحوادث والوقائع كما رآها بعينه أو سمعها بإثنته من معاصريه، والذى يعد ما كتبه امتدادا لنظام الحوادث ورفاعه الطهطاوى الأزهرى المتفرج الذى تمثل كتاباته نقطة تحول بارزة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى وإن كانت معظم كتاباته لا تخلو من السجع الأجوف، وعلى مبارك الذى كان مصنفًا وجامعًا وكانت اهتماماته بالتاريخ واضحة رغم أنه كان مهندسًا ومحمد عبده الذى اشتهر بمحاولاته فى التوفيق بين الدين والعلم الحديث وعبد الله النديم الذى هاجم عيوب مجتمعه بأسلوب يمتاز فيه التبيكيت مع التنكيت وغيره.

وحقيقة أن هذه الكتابات فى مجملها لم يلتزم فيها أصحابها بقواعد الكتابة الحديثة، خاصة وأنهم عبروا عما كتبوه بطريقة عصرهم ولم تكن الكتابة التاريخية وظيفية أساسية فى حياتهم ومع ذلك فيحمد لهم ما كتبوه خاصة وأنهم أضاعوا الطريق المؤرخى القرن العشرين الذى برزوا بدراساتهم الأكاديمية خاصة بعد افتتاح الجامعة المصرية

١ - نشر لأول مرة فى عام ١٨٩٩ .

٢ - نشر لأول مرة فى عام ١٩٠٠ .